الخطاب الصوفي الطرقي في الجزائر بعد 1920 إلى 1954

موقعه ودوره في المجتمع

الدكتور بكاي رشيد – قسم العلوم الاجتماعية – جامعة عمار ثليجي – الاغواط

ملخص :

انطلقت الطرق الصوفية في المغرب العربي، كما هو معروف من بعض الرباطات الجهادية التّي أقامها العلماء والقادة، لحماية الثغور والممرات الإستراتيجية المؤدية إلى أرض الإسلام، وعرفت هذه الرباطات فيما بعد بالزوايا(1)، وسميت بأسماء مؤسسيها الأوائل، ويذهب بعض الدارسين إلى أنّ من أوائل رواد التصوف نجد ابن النحوي المتوفي سنة 1118م إبان العهد الحمادي، وأبو مدين شعيب المتوفى سنة 1198م، وأبو زكريا الزواوي المتوفي سنة 1214م، ومحي الدين بن عربي المتوفي سنة 1242م، أما أكثر الطرق الصوفية تأثيرًا إلى يومنا هذا فهي:

– الطريقة القادرية المنسوبة إلى الشيخ محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلالي، المولود بجيلان–العراق سنة 1078م والمتوفي سنة 561ه الموافق ل1166م.

- الطريقة التجانية المنسوبة إلى الشيخ أحمد بن محمد المختار التجاني المولود في بلدة عين ماضي الجزائرية والمتوفي بمدينة فاس- المغرب الأقصى سنة 1815م.

- الطريقة الرحمانية المنسوبة إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشتولي الجرجري، من قبيلة آيت اسماعيل بجرجرة والمولود عام 1720م والمتوفي سنة 1794م.

والمعروف أنّ المغرب العربي، قد توحد في إطار المذهب السني المالكي، ماعدا استثناءات قليلة وهذه الوحدة المذهبية، والتّي توطدت عراها في عهد الموحدين، لم تمنع من انتشار الطرق والفرق الصوفية وتنوعها، فبالإضافة إلى ما ذكرنا آنفا، نذكر انتشار الطرق الصوفية كالشاذلية والدرقاوية، والسنوسية والطيبية والزيانية، والحنصالية والعيسوية والعليوية...

يمكن وصف الطرقية بأنها شكل من أشكال التنظيم الديني السياسي الثقافي، ويغلب عليها طابع الغموض والسرية، وتتصف في علاقاتها بالسلطة بالاضطراب والتمرد في كثير من الأحيان، والمساندة والمؤازرة في بعض الأحيان الأخرى. وقد قامت الطرقية بعدة وظائف أساسية، تتعلق الأولى منها في أنها ملجأ للفقراء والمساكين والمضطهدين، بحيث كانت تقوم بعامل المحفز التعبوي والإيديولوجي ، من جهة وبعامل المسكن وباعث الصبر والأمل من جهة أخرى، ومحرك لعديد من التمردات والثورات من جهة ثالثة، ويمكن أن نقاربها مع شيء من المبالغة، بأحزاب المعارضة في عصرنا وكمثال على ذلك، يمكن أن نذكر تلك الثورات العارمة، التي

قامت ضد الأتراك العثمانيين في الجزائر من قبل الطريقة الدرقاوية والطريقة التجانية وغيرها.

أما الوظيفة الثانية، فتتمثل في كونها أصبحت بعد توقف حركة الفتوح والغزوات الإسلامية الوسيلة الوحيدة لنشر الإسلام وتعاليمه، وذلك ما يمكن استقراؤه من تاريخ انتشار الإسلام في إفريقيا الغربية، وجنوب الصحراء الكبرى، حيث قامت بهذا الصدد الطريقة التيجانية بدور كبير في أسلمة القبائل الإفريقية، كما استطاعت أن تتوغل في مالي والنيجر ونيجيريا والسنغال... وكان خطابها في ذلك هو الحوار والزهد والإقناع .

لقد تولدت استناداً إلى ما تذكره المصادر التاريخية، أن للصوفية وظيفة ثالثة تتمثل في المحافظة على التراث والثقافة العربية الإسلامية، بحيث أصبحت الزّوايا، عبارة عن مراكز ثقافية ومعاهد علمية، خاصة بعد أن أصبحت الإدارة في الجزائر، تستخدم اللغة التركية بصفة أساسية.

وعملية التتريك هذه كانت حادة، لكنها تختلف قليلا عما عرفه المشرق العربي، حيث يذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله بهذا الصدد، أنّه إذا كانت عملية التتريك قد برزت حادة في المشرق العربي، عشية الحرب العالمية الأولى، فإنّها في الجزائر قد ظهرت بحدة أيضا، ولكن في شكل "العثمنة" لا التتريك فالحكام عثمانيون واللغة عثمانية، والمذهب الديني حنفي عثماني والنظم الإدارية عثمانية(2).

ويضيف الدكتور سعد الله في مكان آخر أن العثمانيين : " لم يؤسسوا جامعة كالقرويين أو الأزهر أو الزيتونة، تبث العلم وتخرج العلماء والكتاب وتحفظ اللغة وتربي العقل ثم إنّهم لم يكونوا يتكلمون لغة البلاد، ولا يتذوقون أدبها ولا يقرأون كتبها، ولا يتصلون بعلمائها اتصالا عاطفيا وعقليا"(3).

لقد كان الاستعمار الفرنسي، على دراية بذلك الشعور الذّي يكنّه الجزائريون ضد الوجود العثماني، ويستدل سعد الله على ذلك بما يأتي:

" لو لم يكن الفرنسيون يعرفون مدى شعور الجزائريين العدائي نحو العثمانيين الأتراك ،لما خاطبوهم في بيانهم بتلك اللهجة، ولما وعدوهم بتلك الوعود"(4).

والمقصود "بيانهم" هو أول بيان نشره ووزعه الفرنسيون على الجزائريين، يزعمون فيه أنهم جاؤوا بعناية إلهية، ليخلصوا السكان من الاستعمار التركي.

ويبدو أنّ الصراع الذي كان سائدًا بين السلطة العثمانية والطرق الصوفية، قد كان من ضمن الأسباب التّي جعلت مدينة الجزائر تسقط بسرعة في أيدي قوات الغزو الفرنسي (من 14 جوان إلى 5جويلية 1930)، في حين يمكن أن نلاحظ أن دولة الأمير عبد القادر التّي انطلقت من العدم استطاعت أن تستمر في مقاومة الغزاة لمدة 17 سنة، بفضل التفاف السكان حولها واستنادها إلى الطريقة القادرية.

ويمكن أن نعمم هذه الملاحظة، على باقي حركات المقاومة الشعبية الأخرى والطرق الصوفية. ولكن مع نهاية القرن (تاسع عشر)، وبدايات القرن العشرين،

اعترى الطرق الصوفية شيء من الهزال والتعب نتيجة القهر الاستعماري، الذي أصبح يقيّم هذه الطرق الصوفية وزواياها على أساس لا يخرج عن ثنائية عدوة أو صديقة، حيث يعمل كل ما في استطاعته على تدمير الأولى، في حين يتغاضى ويتساهل مع الثانية.

" أصبح التصوف الذي يعني الزهد والتقشف والصلاح والعمل بالعلم والابتعاد عن الدنيا وأهلها، قد ترك مكانه في أغلب الأحيان إلى نوع من التصوف، هو أقرب إلى الدروشة والدجل منه إلى الإصلاح، لذلك شاعت مغامرات مدعي الولاية من الجهلة، الذين كانوا يبتزون أموال الناس ويهددونهم في حياتهم، وكانت السلطة متواطئة مع هؤلاء غاضة النظر عنهم"[(5)].

إنّ هذا الوضع الذي آلت إليه الطرق الصوفية، جعلها تنزوي على نفسها، إلى أن أصبحت حبيسة أنواع من الدجل والشعوذة والبدع والخرافات، التّي وجدت تربة خصبة عند الجماهير الفقيرة والأمية.

إنّ الخطاب الطرقي، لا يمكن أن يكون خارج مجال الوضع العام، الذي آلت إليه الطرقية. لأنّ الخطاب إن هو إلاّ معبّر عن قوى روحية واجتماعية وثقافية لمنتجيه، فقد كان في السابق خطابًا يحث على الجهاد والرباط، (منها جاءت كلمة مرابط، التي تشير إلى صاحب الطريقة في اللهجة العامية) في وجه العدوان الأوروبي الصليبي عبر الثغور والموانئ.

ولكن هذا التوجه بدأ في التلاشي والضمور، ويمكن أن نلاحظ ذلك عبر ما وصلنا من قصائد وأوراد وأذكار ، وحلت محلها مفردات تنزع نحو العزلة والانزواء، والشعوذة وقد تصدى لذلك عبد الكريم الفكون القسنطيني، في كتابه منشور الهداية في كشف من ادّعى العلم والولاية الذي دعا فيه إلى "التصوف السلفي".

لقد أصبح الخطاب الطرقي، في هذه الفترة يتميز بالطابع الخرافي، والدجل والشعوذة والاتكال، وقد استغلت السلطات الاستعمارية، هذا الوضع واستخدمته للوقوف ضد حركات التطور والتنوير والإصلاح –خاصة بعد أن تم القضاء على حركات المقاومة المسلحة– وانتقل شكل المقاومة إلى المقاومة السياسية، التّي بدأت تظهر في أشكال مختلفة كالعرائض الاحتجاجية والاجتماعات....

لم يبق في هذه الظروف أمام الخطاب السياسي الصوفي الجزائري، إلاّ العمل على التوعية والمحاجة ومواجهة الخطاب الاستعماري بالخطاب السياسي، الذّي يحظى دائما بقبول واستجابة شعبية جزائرية ،الأمر الذّي جعل السلطات الاستعمارية، تمارس ضغوطها على الزّوايا والطرق الصوفية من جهة، ومحاولة استمالة شيوخها من جهة ثانية، حسب قاعدة "إمّا عدو أو صديق".

انتقل الخطاب الطرقي تدريجيا، من خطاب مقاوم إلى خطاب مُدَجَنْ ومهادن تكثر فيه المفردات التّي تتحدث عن "المقدر" و"المكتوب" وأشكال كثيرة من الشعوذة والدجل، وقد أصبح معارضًا شديدًا وهدفًا مقصودًا من قبل الحركة الإصلاحية، بقيادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

يمكن أن نلاحظ أيضًا أنّ انخفاض وتدني المستوى الثقافي في الجزائر، الذي جاء نتيجة حتمية للسياسة الاستعمارية المبنية على التجهيل، وقد كان لذلك انعكاس طبيعي على الخطاب الطرقي، إذ أنّ فنون التعبير الكلامية كالشعر الفصيح والملحون والخطابة والأمثال والحكم، قد أصبحت في أقصى درجات الابتذال والانحطاط.

ازداد الخطاب الطرقي انزواءًا ، بل خضوعا للرغبة الاستعمارية، بعد أن صار مهددًا من قبل الخطاب الإصلاحي الذّي قادته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي تأسست سنة 1931، تحت زعامة عبد الحميد ابن باديس الذّي تصدى هو بنفسه للطرقية، من خلال مجلته الشهاب.

ومن الجديد بالذكر أن الطرقيين كانوا في البداية ، من ضمن الداعين إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكانوا من أعضائها المؤسسين، ولكنّهم سرعان ما انشقوا عنها وأسسوا جمعية علماء السنة الجزائريين يوم 15 سبتمبر 1932، الذي جاء إثر تجمع رجال الزّوايا والطرقية المنشقين، عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تحت شعار يتمحور حول فكرة "العقيدة المذهبية السنية" المضادة "للعقيدة المذهبية الوهابية"، التّي يتهم بها الطرقيون جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ولنشر هذه الأفكار أصدروا صحيفة الإخلاص ابتداءا من 14 ديسمبر 1932 لتتصدى لصحف جمعية العلماء، وقد أشرف على صدور هذه الصحيفة، المولود بن الصديق الحافظي الأزهري وأدارها عمر إسماعيل ،وقد توقفت عن الصدور سنة 1933.

ومن صحف الطرقيين كذلك نذكر صحيفة صوت المسجد (1933)، والتي أشرف على إصدارها محمد العاصمي، وكذلك صحيفة النجاح (1919-1956)، لصاحبها مامي إسماعيل وغيرها من الصحف الطرقية.

كان النقد المتبادل بين الجمعيتين، قد أدى إلى ظهور صحف مخصصة لهذه الغاية، مثل صحيفة الجحيم (1933م)، وأبرز محرريها محمد الأمين العمودي، والمساندة لجمعية العلماء، والمعيار (1932-1933) لصاحبها مصطفى هراس، والتابعة لجمعية علماء السنة الجزائريين ،وقد نزلت في بعض مقالاتها إلى الهجاء المقذع.

ونشير إلى أنّ النقد الذّي وجهه الطرقيون، عبر صحفهم إلى جمعية العلماء، يتمثل في زعمهم أنّ الجمعية أساءت إلى الوحدة الجزائرية، وزاغوا عن سبيل السلف الصالح، وهم دعاة الفتنة والتشويش كما جاء في صحيفة الإخلاص.

ظهرت هذه الفئة المغرورة – يعني جمعية العلماء المسلمين- لنشر الوهابية وتزييفها، في قلوب العامة السذج، وقامت بالدعاية لنشرها في حفلاتهم ودروسهم وتلقيناتهم، بل وبسائر الوسائل، فأحس علماء السنة بهذا الويل المحدق بهم، وتحققوا أنّ الدعاية الوهابية كادت أن تعطى حظها الأوفر من الذيوع والانتشار، الشيء الذّي أوجب عليهم القيام بفريضة الدفاع عن حوزة الدين"(6).

هكذا قام رجال الطرق الصوفية للتصدي لرجال الإصلاح، وقد استخدموا كما لاحظنا في خطابهم مفردات ذات جذور دينية، لكن سرعان ما استعملوا خطابًا

ناقدًا في صحيفة المعيار (صدر أوّل عدد منها يوم 18-12-1932)، ويمكن أن نلاحظ أنّ انتقال الصراع إلى الصحف يعتبر ظاهرة جديدة في صحافة الأهالي العربية، حيث تم تبادل التهم بينها، كما رأينا فهذا وهابي دخيل وذاك عدو العلم والعلماء وهادم للدين.

والواقع أنّ انحسار المدّ الطرقي قد أصبح في هذه الفترة بما لا يدع مجالاً للشك ، إذ أنّ الإحصاءات التّي أوردها المؤرخ الفرنسي، شارل أندري جوليان تؤكد أنّه:

"قدّر أنها- أي الطرقية - لم تعد سنة 1930م، تشتمل سوى على 256.086 مريدًا وكان أهمها في الطريقة الرحمانية بالقبائل المؤسسة نحو 1770م، تعد وحدها نحو 133.102 في سبعة وسبعين زاوية، وهناك تقديرات أخرى سنة 1939 انتهت إلى 40.000 منخرط، نصفهم تقريبا بأقصى الجنوب،وقد وضعت الحكومة الفرنسية يدها عليها بدون احتشام"[7].

ومع ذلك فإنّ ظلالاً من الخطاب الطرقي، ساهمت في تشكيل الخطاب الإيديولوجي الجزائري، فمصالي الحاج أبو الحركة الوطنية الجزائرية، كان في بداية حياته أحد مريدي الطريقة الدرقاوية، كما أنّ الطرقية قد ساهمت في تزويد الحركة الوطنية، وكذلك الثورة المسلحة بعدد معتبر من المجاهدين، والإطارات والكفاءات الشبانية المثقفة، التّي ساهمت في بلورة الخطاب الإيديولوجي بعد الاستقلال.

لم تعد الزّوايا والطرق الصوفية، رابطات للجهاد ومكان للصلاة والعبادة فقط، بل كانت تمثل فضاءًا اجتماعيا وثقافيا ودينيا، تساهم في بناء الإنسان الجزائري،

وتكوين شخصيته في ظل القيم والمبادئ الإسلامية، بالنظر لما كانت تتمتع به من رصيد مذهبي ديني مؤثر وباعتبارها مركزًا للحركة التعليمية والدينية، ومؤسسة يلجأ إليها الناس لحل نزاعاتهم ومشاكلهم، فقد أرست فعلا دعائم الذاتية الجزائرية.

على غرار المراكز العلمية والدينية الأخرى ، مثل المدارس والمساجد والكتاتيب القرآنية المنتشرة في القرى والمدن الجزائرية ،عملت الطرق الصوفية وزواياها على الحفاظ على الموروث الثقافي العربي الإسلامي (نقل ونشر وإعادة إنتاج الثقافة الدينية الإسلامية، وما تحمله من قيّم وأخلاق ومعاني وسلوكات اجتماعية ونشر قيم المحبة والتآخي والتسامح بين الجزائريين)، وبفضلها تم انتشار الدين الإسلامي بتعليم القرآن الكريم واللغة العربية، في كامل أرجاء الوطن، فاللغة تمثل العمود الفقري للحياة الثقافية وأداة التواصل الإجتماعي ، وتؤّكد على الذات الجماعية وعلى الوعي بالاعتماد إلى العروبة والإسلام، كما ساهمت زوايا الطرق الصوفية في الحفاظ على مقومات السكان الجزائريين، وحصنهم ضد الانحراف وجنبهم التفسخ والانحلال والاندماج في الثقافة الفرنسية ، ثقافة الغالب كما مكنّت المجتمع الجزائري من المحافظة على أصالته العربية وهويته الوطنية، طوال فترة الاحتلال وكان لذلك أثر بالغ في استنهاض روح المقاومة الوطنية، خلال ثورة أول نوفمبر الخالدة.

تمثل الطرق الصوفية وزواياها، فضاءًا اجتماعيًا نظرا لما تقوم به من تأطير المجتمع المحلي وتوجيهه في إطار العلاقات الاجتماعية، والمحافظة على التراث والعادات والتقاليد المكرسة، نظرا للمكانة العالية التّي تحتلها في السلم الاجتماعي، ولما يتمتع به أصحابها من منزلة واسعة طيّبة واحترام وتقدير كبيرين ، وسلطة معنوية على

السكان، فإنّ نداءهم للجهاد قد لقي صدى واسعًا على الأتباع، أثناء مرحلتي المقاومة والثورة التحريرية، كما كانت مقصدًا لطلاب العلم وعابري السبيل واللاجئين إليها والفقراء والمساكين، نظرًا لما كانت تتوفر عليه من وسائل وأطر للتعليم والتربية وللأعمال الخيرية، فمكانها مقدس لا يمكن لأي أحد تدنيسه أو الاعتداء عليه ، كما كانت مرجعًا للقضاء تبرم فيها عقود الزواج والطلاق ويصهر على المحافظة على الأحوال الشخصية.

أما التفوق العسكري والسياسي والاقتصادي والثقافي للعنصر الأوروبي، وما أنجر عنه من اضطرابات في البناء الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمجتمع المحلي وتفكيكه، وأمام السياسات الاستعمارية المنتهجة من طرف السلطات الفرنسية، ولما تحمله من أهداف إيديولوجية هدامة للقيّم الوطنية من خلال تجهيل الشعب الجزائري، والقضاء على مؤسساته التربوية والتعليمية والدينية، كالمدارس والمساجد والزّوايا ،قامت الإدارة الفرنسية بتحويل الكثير منها إلى مؤسسات إدارية وثكنات وكنائس وكاتدرائيات، كما قامت بمطاردة العلماء والفقهاء وحفاظ والقرآن الكريم والمدرسين ونفيهم في داخل البلاد وخارجها، بعدما قامت بنزع أراضيهم ومصادرة أملاك الأوقاف الإسلامية التابعة للمؤسسات الدينية، التّي كانت توفر الإمدادات المالية اللازمة للإنفاق على المشاريع التعليمية والتربوية، وعلى برامج الأنشطة الدينية المختلفة.

وأمام كل هذه المؤامرات تمكّن المجتمع الجزائري، من استرجاع قواه الحية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، ومن الاستفاقة الوطنية، للنهوض من مرحلة غلبت عليها المعرفة والمقاومة الدفاعية عن الذات، والتّي تميّزت بعدم التعامل مع كل ما هو

فرنسي، تلك المواقف التّي يحركها الشعور الديني، إلى معرفة نقدية متفتحة على التيارات الإصلاحية وعلى العناصر الإيجابية، التّي تحملها الثقافة الغربية، وبالتالي التعامل مع قوة الواقع بالحكمة المتبصرة لتوظيفه في السياق التاريخي للنضال الشعبي الجزائري المتواصل، والصمود ضد أخطار الاحتلال المتعدد الأشكال، فبدأت تبرز على مسرح الأحداث الوطنية، منظمات وجمعيات جدية استطاعت أن تتأقلم مع المتغيرات التّي أفرزها الواقع الجديد، مستعملة في ذلك وسائل نضالية أكثر تطورًا لمواجهة مجمل التحديات الراهنة.

فبعدما كانت الزّوايا مهيمنة طيلة القرن 19م، وإلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى ، على الحياة السياسية الثقافية في الجزائر، بدأت تفقد أهميتها وقيمتها في الحياة الاجتماعية، وبدأ يتراجع دورها ويتقلص نفوذها، الذي كانت تتمتع به في السابق. إنّ علاقتها الجدلية مع الاستعمار قد تراجع كثيرًا، ليفسح المجال أمام الحركات والجمعيات الوطنية الناشئة، وخاصة أمام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التّي أصبحت تأخذ زمام المبادرة العملية في تعاملها مع النظام الاستعماري.

ويعود تقهقر دور الزوايا إلى أربعة أسباب رئيسية نلخصها فيما يلي:

1- فقدانها الاستقلال الذاتي الذّي كانت تتمتع به سابقا، من خلال فرض المراقبة الشديدة عليها ومحاصرتها من طرف الإدارة الفرنسية.

2- ضعف مواردها التّي كانت تسد النفقات الضرورية للقائمين على أمور التعليم والعبادة والقضاء، وكذا صيانة بنايات المؤسسات وتوسيعها عند الغرض.

3- ظهور علاقات اجتماعية واقتصادية جديدة، ذات طابع استعماري استغلالي، محل العلاقات الاجتماعية القبلية، المبنية على الملكية الجماعية للأرض.

4- هجرة اليد العاملة من الريف إلى المدينة، ومن الجزائر إلى الخارج.

وتتجلى مظاهر ضعف المؤسسات الدينية والتقليدية في ثلاثة مجالات على الأقل ويمكن تلخيصها فيما يلي:

أ) المجال الاقتصادي:

تفكيك البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الجزائري، وما انجر عنه في تغيير نمط الحياة (الهجرة الداخلية والخارجية، علاقات عمل جديدة مبنية على نظام الأجرة...) ،مصادرة الأراضي الزراعية من أصحابها، وتقسيم الملكية وتفكيك الإنتاج العشائري القائم على قيّم العمل التعاوني والتآخي والتآزر والتكافل الاجتماعي، كما قامت بمصادرة الأوقاف التابعة للمؤسسات الدينية، ومراقبة نشاطها مما ترتب عن هذه السياسة التدميرية، أضرارا مادية ومعنوية تمثلت أساسا في تقليص مداخيل هذه المؤسسات وتفقير العديد منها، ممّا جعل البعض منها تغلق أبوابها، وأن تؤدي بالبعض من رجالها، إلى البحث عن سند مادي لم يجدوه إلا لدى السلطة الاستعمارية، التي حاولت استعمالهم لخدمة مصالحها(8)، ومن ثم إغراء شيوخها بالمراكز الاجتماعية والمراتب الشرفية والأدوار القيادية، فجعلوا من بعضهم، حلفاء لهم في محاربة طرق أخرى في المرحلة الأولى، ثم محاولة كسر نفوذ جمعية العلماء فيما بعد.

ب) المجال السياسي:

بلغت الهيمنة الاستعمارية في الجزائر ذروتها، غداة انتهاء الحرب العالمية الأولى بعد فشل كل المقاومات الشعبية التّي خاضها الشعب الجزائري، تحت لواء الجهاد ضد الاحتلال الأجنبي خلال القرن التاسع عشر.

ليفتح المجال أمام أسلوب جديد من النضال، الذّي انطلق من المدن بدلا من الأرياف الجزائرية، يرجع الفضل في ذلك إلى بروز نخبة مثقفة، تخرجت من الجامعات العربية المشهورة في ذلك الوقت، وتأثرت بالأفكار الإصلاحية التّي كانت لها رواجا كبيرا في بلدان المشرق الإسلامي، وجيل من الشباب المثقف المتخرج من المدارس الفرنسية، وتعلم من ثقافتها طرق جديدة في التفكير وتشبع بقيمها المنادية للحرية والعدالة والمساواة .ولقد تحملت هذه النخبة المثقفة بتياراتها الإيديولوجية المختلفة، مسؤولية قيادة النضّال السياسي وتنوير الشعب الجزائري والتعبير عن تطلعاته الأساسية، مما ساهم في ظهور حركة وطنية، تكونها منظمات سياسية وجمعيات ثقافية اعتمدت أساليب نضالية حديثة، تمثلت في العمل التعبوي، والجمعوي والصحفي والتعليمي.

أصبحت التنظيمات السياسية والاجتماعية الجديدة، تنافس جديا الزّوايا والطرق الصوفية في كسب أتباع ،مما أدى مع مرور الوقت إلى تهميشها، ليقتصر عملها على التعليم والتربية . ولكن هذه الوظيفة النبيلة، بالرغم من أنها كانت تعتمد على الطرق والوسائل التقليدية (الاعتماد على التلقين الشفوي)، إلاّ أنها ساهمت في الحفاظ على أصالة المجتمع الجزائري، وعلى تراثه ودينه ولغته، إنّ تواجدها في الساحة الوطنية، تأكد على الدفاع عن مقومات الشعب الجزائري .

لقد استطاعت السياسة الفرنسية، تقويض حركة الطرق الدينية، من خلال محاصرة نشاطها وإضعاف أوضاعها المادية، بمصادرة أوقافها ومنع جمع الأموال الوافدة من الزيارات والصدقات من جهة، والعمل على احتواء شيوخ الزّوايا، من خلال توطيد علاقات الصداقة معهم، بالاعتراف بمكانتهم المتميزة، وحتّى توليهم مسؤوليات إدارية، ومشاركة احتفالاهم ومنحهم بعض الامتيازات السياسية، لكسب ودّهم وتتمثل خاصة في إعفاء أبناءهم من الخدمة العسكرية، ومن دفع الجباية والضرائب وتقلدهم أوسمة شرفية مكافئة لولائهم .

لعل الصراع المفتوح بين الطرق الصوفية وجمعية العلماء، سهل الأمر لدوائر الإدارة الاستعمارية من توظيف بعض من رجال الزّوايا الصوفية ابتداءا من سنة 1932م، مع تأسيس جمعية علماء السنة الجزائريين، التّي تجمع فيها المناهضون للحركة الإصلاحية بما فيهم الممثلين عن الزّوايا والطرق الدينية ،خاصة بعد عملية إقصاء أعضاءها الفاعلين من المكتب الإداري لجمعية العلماء في ماي من سنة 1932م، ثم إعادة جمع شتاقم من جديد بتأسيس جمعية رؤساء الطرق الدينية في سنة 1937م.

ج) المجال الديني والثقافي:

عملت الإدارة الفرنسية في الجزائر، على تقليص دور الزّوايا والطرق الدينية في المجال التعليمي والثقافي ،مما خضعت الكثير منها إلى الجمود بشكل أكثر خطورة، حتى عشعشت في أوساطها الخرافات والشعوذات ،إذ أصبح الجمود الفكري سائدًا فيها، يرجع السبب في ذلك إلى طبيعة الطرق الدينية ونظام تعليمها التقليدي، وسياسة التجهيل المتبعة من طرف النظام الاستعماري.

إنّ الحرب المعلنة بين جمعية العلماء المسلمين والزّوايا، والتّي تصدرتها صفحات الصحف والجرائد والخطب الدينية في المساجد، ولاسيما تلك الانتقادات الموجهة ضد الفكر والممارسات والمعتقدات الطرقية، أدت إلى زعزعت نفوذها في أوساط المجتمع الجزائري، مع ذكر بأنّ مثل هذه المواقف المعادية للطرق الدينية، لم تكن مألوفة من قبل، وكانت تعد من الجرائم الكبرى، لأنها تمس بقدسية الزّوايا ومؤسسيها.

إنّ تكثف نشاط الحركة الوطنية والمطالبة بالاستقلال السياسي، ساعد عل تبلور وعي سياسي بدأ يستقطب الكثير من الجزائريين ،إذ أصبحت التشكيلات السياسية، والجمعيات الوطنية تشكل القوة المستقطبة للجماهير المأثرة فيهم، ولاسيّما أنّ الكثير من أتباع الطرق الدينية قد هاجروا إلى المدن في داخل البلاد وخارجها.

وتأثروا بعوامل الحياة العصرية، وبذلك تفتحوا على نشاط الحركة الوطنية، بجميع تياراتها فكان من الضروري أن تجد الزّوايا منافسة شديدة من قبل هذه المنظمات، ولاسيّما من قبل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

لكن لا يمكن إغفال دورها الإيجابي في ميدان التربية والتعليم ،إذ كانت لبعض الزّوايا التابعة للطرق الصوفية ، أدوارا طلائعية في المقاومة الثقافية والتربوية، ومنها زاوية الهامل ببوسعادة التابعة للطريقة الرحمانية ،والزوايا المنتشرة ببلاد القبائل والتي كان معظمها ينتمي للطريقة الرحمانية، وكذلك الزوايا المنتشرة بالصحراء. اهتمت هذه الزوايا بتعليم القرآن الكريم ومبادئ اللغة العربية، في وقت حاربت فيه السلطات الاستعمارية، كل ما هو عربي إسلامي.

فانتقال خطابها (أي الطرق الصوفية في الجزائر) من المقاومة الشعبية المسلحة ضد الاستعمار في مراحل تاريخية سابقة، إلى مقاومة ثقافية واجتماعية وسياسية، اعتمدت فيها على الفكر والقلم، في عملية محاربتها الاستعمار الفرنسي. وكذلك اعتمادها على أساليب عصرية في عملية المقاومة، كنموذج الطريقة العلوية الذّي تناولناه سابقا.

لعبت الزّوايا الصوفية المنضوية تحت التنظيمات الطرقية، أدوارًا في الحركة الثورية الجزائرية، فإنّ كل الثورات والانتفاضات الشعبية التّي قام بها الشعب الجزائري، منذ الاحتلال جرت تحت لواء الإسلام، واستندت إلى الثقافة الإسلامية وقيمها.

إنّ مصطلح الجهاد والمجاهد والشهيد وحب الاستشهاد، قد استعملت من قبل شيوخ الزّوايا والطرق الصوفية، لدفع أعضائها إلى القتال والدفاع عن الأرض، وتداولتها ثورة أول نوفمبر مستلهمة من التجربة التاريخية، لنضال الشعب الجزائري ضد الوجود الاستعماري طوال فترة الاحتلال، انطلاقا من أنّ للثورة الجزائرية بعدًا شعبيا، ذلك البعد الذي أعطاها القوة المحركة المتواصلة باعتبار أن القواعد الشعبية هي المحرك الرئيسي لها، فالتف الجزائريون حولها باختلاف انتماءاتهم الاجتماعية والعقائدية، فنجد العدد الكبير من أعضاء الزّوايا ومعلميها ومحبيها وأساتذتها وطلبتها قد شاركوا في الكفاح المسلح.

ومن أهم ما يجب ذكره هنا، أنّ الكثير من مناضلي الحركة الوطنية والثورة الجزائرية، قد تعلموا في مدارس الزّوايا أبجديات القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، قبل الالتحاق بمدارس جمعية العلماء المسلمين أو المدارس الفرنسية، ألم

ينتسب مصالي الحاج إلى الطريقة الدرقاوية في شبابه، ألم يعيش آيت أحمد في بيئة دينية تقليدية، كان جده الشيخ محند الحسين المتوفى سنة 1901م مرابطًا وأحد شيوخ الطريقة الرحمانية، ألم يترعرع الرئيس السابق أحمد بن بلة في وسط ديني محافظ، فكان والده مقدم الطريقة المكحلية بمدينة مغنية ، إنّ أتباع الطرق الصوفية والزّوايا لم يترددوا بالالتحاق بالثورة وتدعيمها بكل الإمكانيات المتاحة لديهم ،لأنّ الزّوايا والطرق الصوفية بالرغم من كل المضايقات التّي مارسها الاستعمار الفرنسي عليها، وضرب الحصار على نشاطها بهدف إضعاف مردودها التعليمي والديني، إلاّ أنّها استمرت في أداء رسالتها الرامية إلى الحفاظ على المكونات الأساسية للشخصية الجزائرية، وترسيخ الثوابت الوطنية للمجتمع الجزائري.

هوامش الدراسة :

(1) أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي،الجزء الأول،الجزائر،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1981،ص515.

(2) أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي،مرجع سابق،ص538.

(3) المرجع نفسه،ص544.

(4) المرجع نفسه،ص556.

(5) أبو القاسم سعد الله ،الحركة الوطنية الجزائرية،مرجع سابق،ص89.

(6) أبو القاسم سعد الله ،الحركة الوطنية الجزائرية،مرجع سابق،ص88.

(7) المرجع نفسه،ص71.

(8) أبو القاسم سعد الله ،الحركة الوطنية الجزائرية(1900، 1939) دار الآداب،بيروت،1969،ص77.